فلسفة الأنوار طريق إلى العقلانية

أ.د.فضيل رتيمي قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

جامعة البليدة

Résume

La rationalité des années de lumiere résume le volet scientifique des penseurs et leurs écrits .C’est une étape par exellence, qui dessine les grands pas de l’humanité sur la réflexion, la pensée rationnelle,scientifique et méthodologique des phémoménes sociaux.

لقد شكّل عصر التنوير حلقة التأسيس الفكري والفلسفي والعملي للعصر الحديث، كما شكّل بواكير التجاوز الكيفي لحقبة من التخلف الشامل، لذلك كانت فلسفة الأنوار جامعة بين اختلافات المثالية والتجريبية والتي عرفها تاريخ الأفكار في أوروبا في تيارين فلسفيين:

تيار يؤسس أفكاره على أسبقية العقل وأولوية مبادئه في المعرفة.

وتيار يؤسس المعرفة على أسبقية التجربة وأولوياتها، وأولى سمات عصر التنوير في حاكمية العقل، وفي احتواء شروطه وقوانينه كل مجالات المعرفة، فكان "رونيه ديكارت" (René Descartes1596-1650) من المراجع الأساسية التي أطّرت هذا العصر بتأملاته ومقالته في المنهج، إلى جانب الفيلسوف الهولندي "باروخ سبينوزا" (Baruch De Spinoza 1632-1677) برسالته في الأخلاق والسياسة وكتابه في الأخلاق، إلى جانب الفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبز" (Thomas Hobbes 1586-1679) بمحتويات "التنين" و "المواطن"، كل هذا بمحاذاة ميكانيكا "إسحاق نيوتن" (Issac Newton 1727-1642)وتجريبية "جون لوك" (John Loock 1632-1704) والعقلانية النقدية للفيلسوف الألماني "إمانويل كانط" (Immanuel Kant 1724-1804).

كان التعقيل (نسبة إلى العقلانية) القاسم المشترك الأعظم بين مختلف هؤلاء الفلاسفة والعلماء والسياسيين، فالعقل عندهم هو الأداة الوحيدة الموصلة إلى اليقين، وعلى الرغم من اختلاف المدارس والمذاهب في الفكر التنويري إلاّ أنّ الإجماع كان يكون حاصلا حول اكتفاء العقل بذاته، وحول قدرته المطلقة على المعرفة وهذا بالضبط ما بلورته العقلانية الفرنسية مع "رونيه ديكارت" (René Descartes) حيث تراجعت أدوات الإدراك الأخرى عن موقعها، تأسيسا على مبدأ الشك المنهجي الذي أراده "رونيه ديكارت" (René Descartes) شاملا لكل ضروب المعرفة، لا بوصفه منطقا وجوديا سابقا على الذات فحسب، ولكن بحسبانه كذلك مبدأ مؤسسا للذات وللطبيعة وللإله معا[1].

إنّ قراءة التاريخ بروح علمية، قد دشنها عصر النهضة وبلورها عصر التنوير، فجعلها خاضعة لمقاييس العقل، ومتجاوزة لقراءات التأسيس على المعجزة اليونانية، والمركزية الأوروبية، وبذلك تتفتح هذه القراءة على مضامين التاريخ العام للأمم، تتأسس هذه الرؤية الجديدة على اعتبار الحضارة بناء إنسانيا توالت على إقامته وقيادته ثقافات مختلفة، ولعلّ العامل الذي أدى إلى الانفتاح العربي الإسهامات الحضارية وعطائها.

وبالموازاة كان التنوير الفرنسي في نموذجه الثوري أكثر جرأة من التنوير الألماني والإيطالي، ذلك أنّها كانت مواجهة مع النظام القديم على أصعدة متعددة، فهي مواجهة مع الكهنوت الديني، والاستبداد الملكي، كما كانت مواجهة مع التقاليد

الاجتماعية، والعلاقات المنظمة للأسرة وأفرادها، ولعلّ مقارنة سريعة بين كتابي "الدين في حدود العقل وحده" للفيلسوف الألماني "إمانويل كانط" (Immanuel Kant) و "القاموس الفرنسي" لـ "فولتير" (Voltaire 1778-1694) تكفي لإبراز "محافظة" الأول في مقابل ثورية الثاني، ففي حين لم يتمكن إيمانويل كانط من الدفع بالنقد إلى حدوده القصوى نتيجة محافظته، تمكّن فولتير (Voltaire) نتيجة ثوريته من الذهاب إلى النهاية، حيث أثبتت سلطة العقل وحده لما عالج التراث الديني، وذلك فيما نادى به من تصفيته من كل أشكال التقليد والخرافة[2].

إنّ الذي يهمنا أكثر عند الكلام عن العقلانية في المجتمع الغربي يكمن في ادّعاء دعاتها أنّها تشكّل النموذج والمرجع الأوحدين للعقلانية عموما، أي أنّ العلمنة والعقلنة تكونان أسس ومبادئ الأساليب النافذة في تجاوز الخرافات والتفكير الساذج، وفي الوصول إلى قمة الحضارة، ذلك ما تحتويه من آليات ومناهج لها تلك القدرة التغييرية. هذا الخطاب عن العقلانية والحداثة دعا إليه كل من " بسام الطيبي" و "ناصف نصّار" و "فضل شلق" و "جورج قدم" و "محمد أحمد خلف الله"[3]، هذا الذي يدلل عليهم جميعهم في قوله أن تولي الإنسان لمسؤولية نظام الدولة في عصرنا يتطلب أن يكون هذا النظام علمانيا.

لقد تركزت الحداثة في أوروبا على النهضة والأنوار، وما لازم ذلك من اكتشافات في المجال العلمي، من قيم جديدة، كالنزعة الإنسانية، وتمجيد قيمة الفرد وإعلاء حرية الإنسان، ومن إصلاحات دينية مكّنت من تعبيد الطريق أمام مناح في الحياة والمجتمع، وتجسّدت فكرة المجتمع الحديث باعتباره المسوّغ والإطار الذي سيتمكن من خلاله من تحقيق كل مصالحه وطموحاته لقد مرّت الحداثة باعتبارها ظاهرة حضارية في المستوى النظري والعملي بأربعة توازنات كبرى، حققت الأولى منها حصول الإنسان الأوروبي الحديث على استقلاليته وإرادته في التحكم التقني في العالم، ولعلّ الديكارتية خير من عبّر عن تجذّر هذه المشاريع العقلانية في المجتمع الغربي، أما الثورة الكبرى الثانية، فتمثّلت في الفلسفة الوضعية التي جعلت العالم شفافا لا سرّ فيه، وكان له ذلك في القول بالمعرفة الكلية، والقدرة اللامحدودة للعقل، أما الثورة الكبرى الثالثة فتمثّلت في عملية تمييز الهياكل عن بعضها وفصل السلطات، وأطلق على هذه المرحلة عملية علمنة المجتمع، وتبلغ الحداثة في الثورة الرابعة أوجها في مثل النزعة الإنسانية الغربية التي طورتها فلسفة الأنوار.

وبدأت العقلانية في الغرب محملة بمجموعة من التوترات، توتر العقل والذات والعقلنة، وتحقيق الذات بروح النهضة، وروح الإصلاح بالعلم والحرية، جاء هذا نتيجة محصلة لحوار العق مع الذات، وفي هذا الصدد يقول "آلآن توران" (Alain Tourraine): "فبدون العقل تنغلق الذات في هوس هويتها، وبدون الذات يصبح العقل آلة السلطة، ومن هنا تتمثل أزمة الحداثة (الغربية) في الفصل الذي تمّ بين جناحي الحداثة، العقل والذات حيث تصارعا، وتجاهل كل منهما الآخر"[4]، وهو ما مهّد لأزمة الحداثة خلال اقرن العشرين نتيجة للنجاحات الكبيرة التي حققتها العلوم، والتكنولوجيات والتطور العقلاني في أنظمة الإنتاج وتسييرها وتنظيمها بحيث برز ما يسمى عصر الإنتاجية.

أولا. العقلانية عند أصحاب العقد الاجتماعي :

برزت في القرن السادس عشر حيث أخذت الدول القومية بالنشأة و التكوين ، و أخذت النظرية القومية تحل بديلا للنظرية الإمبراطورية ، و قد حمل لواء هذه المدرسة الفيلسوفان الإنجليزيان (توماس هوبز و جون لوك) و بعدهما الفيلسوف الفرنسي (جون جاك روسو)

يجمع مفكرو مدرسة العقد الاجتماعي على أن الإنسان بطبيعته حيوان اجتماعي ، ففي البداية كان معزولا عن أبناء جنسه و مدفوعا لسد حاجاته الأساسية بعيد النظر على المجتمع و حاجاته الذاتية مما أدى به إلى الاصطدام و الاقتتال مع الآخرين و هذه الحالة سببت قصر عمر الإنسان وحدوث الفوضى و الاضطراب داخل المجتمع ، فكان القوي يسلب أموال

الضعيف وحقوقه ويتمتع بها لفترة من الزمن ، و لكن سرعان ما يضعف القوي و يصبح عاجزا عن الدفاع عن ممتلكاته و حقوقه ، و في هذه الحالة يتعرض القوي الذي ينتهي بسلب أمواله و حقوقه بل و حتى قتله و إنهاء حياته .

و أمام اللاأمن و الفوضى و الاضطراب بين البشر لفترة طويلة دفعت الناس إلى إنهاءها و الوقوف ضدها و ذلك عن طريق الاتفاق الجماعي .و هذا الاتفاق يلزم الناس جميعا على إنهاء قانون شريعة الغاب و إزالة أسباب المنافسة و الصراع بينهم والتوقيع على عقد اجتماعي بهدف اختيار فئة حاكمة من بين الناس تتولى حكمهم و تمشية أمورهم و الدفاع عن حقوقهم و نشر مبادئ المساواة و العدالة الاجتماعية بينهم .

و رغم الاتفاق العام في مبادئ العقد إلا أن هناك اختلافا بين أقطاب العقد الاجتماعي يدور حول حقيقة العامل الذي رفع الناس إلى التوقيع على العقد الاجتماعي و إنهاء حالة الفوضى

و الاضطراب التي حلت بين الأفراد و الجماعات نتيجة وجود قانون الغاب . فمثلا هوبز يؤكد أن خوف الإنسان من أخيه الإنسان دفعه للتوقيع على العقد الاجتماعي ، بينما لوك بدى بأن رغبة الإنسان في الحفاظ على ممتلكاته هي التي دفعته للتوقيع على هذا العقد ، بينما يعتقد روسو بأن سبب توقيع الإنسان على العقد الاجتماعي يرجع إلى رغبة في نشر مبادئ العدالة الاجتماعية و تعزيز المصلحة الجماعية[5] .

ثانيا. العقلانية عند مونتسكيو و كندورسيه :

خلال القرن الثامن عشر ، تغيرت كثير من أنماط التفكير الاجتماعي وجدت تحديث على مكونات نظرية العقد الاجتماعي و غيرها من النظريات الأخرى ن حيث ظهرت مجموعة من الآراء و النظريات بدأت بين الأسلوب العلمي والمعرفي في دراسة طبيعة المجتمعات البشرية ، والبعد عن النظريات المثالية و الأخلاقية أو ما ينبغي أن تكون عليه هذه المجتمعات[6].

1-عند مونتسكيو :

حاول أن يوضح طبيعة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي عاشتها أوروبا خلال القرن الثامن عشر ، و طرح تصوراته كبديل للحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية والتي اعتمد فيها على العلم أولا و البعد عن التحليلات السوفسطائية أو المثالية الأخلاقية و الدينية . و قد برزت هذه الفكرة بشكل واضح على يد العلامة مونتسكيو في كتابه الشهير باسم روح القوانين و قد اشتهر تعريفه للقانون بأنه العلامة الضرورية التي تنشأ من طبيعة الأشياء ، و هو يعني أن مثل هذا التعريف يصدق على الظواهر الطبيعية .

درس أصل القوانين الوضعية و قرر أن الغاية منها هي تنظيم علاقات الأفراد في الاجتماع الإنساني و حملهم على ما ينبغي أن يكونوا عليه في معاملاتهم الاجتماعية[7].

و قد يمكن أن نستشف منذ البداية في كتابه روح القوانين النزعة العقلانية التي تمثلت في تحويل اتجاه الفلسفة السياسية والاجتماعية والنزعة الوضعية و جذرها من البحوث الخيالية والآراء الفطرية ، و خاصة ما تعلق بنشأة الدولة أو المجتمع السياسي ، فلم يأخذ الخط الفكري الذي رسمه أصحاب التعاقد ، و إنما اعتبر المجتمع مظهرا من مظاهر الطبيعة ، و أن الحاجة الاجتماعية إحدى الحاجات الطبيعية الأساسية بالإضافة إلى الحاجة إلى التغذية و التدين و التناسل

و القانون بمعناه العلمي ينطبق على الظواهر المتصلة بالبيئة الطبيعية بما تنطوي عليه من عوامل جغرافية مناطية و ظواهر ديموغرافية سكانية .

كما ربط مونتسكيو بين أشكال و أنواع متعددة من القوانين ، و هذه العلاقات هي التي أطلق عليها روح القوانين التي من أهم غايتها تنظيم علاقات الأفراد في المجتمع الإنساني و حملهم على ما ينبغي أن تكون عليه معاملاتهم الاجتماعية .

كما نجد أن القوانين هي نسبية عند مونتسكيو ، حيث تتوقف على شروط بيئية جغرافية مناخية ، و تتعلق بأمور مادية واقتصادية و ديموغرافية ، كما تتصل بالظروف و العوامل الأخلاقية و الروحية .

واعتبر كتابه روح القوانين من أهم المؤلفات عصر النهضة جميعا الذي استخدم فيه المدخل المقارن في دراسة الأبعاد التاريخية و الجغرافية و السياسية و الفلسفية و الاقتصادية و القانون، و ناقش بوضوح فكرة القانون الطبيعي و ذلك من منظور اجتماعي ، سياسي و علمي ، واقعي جديد بعيدا عن التفسيرات التي تهتم في بداية العصور الوسطى أو التي ظهرت مع أواخر انهيار السلطة الدينية و ظهور فكرة السيادة السياسية للدولة التي اعتمدت على فكرة الحكم المطلق.

كما ركز على أهمية التعليم باعتباره من الوسائل التي تؤدي إلى التحديث و التغير ، وخلق جيل من المثقفين الذين يقومون بتقديس النظام و احترام القوانين[8] .

2-كوندورسيه : Condorcet (1743 - 1794)

تتميز أفكار كوندورسيه بأنها جاءت بصورة أكثر واقعية و خبرة من آراء مونتسكيو ، وخاصة أن الأول انتقل بالحياة السياسية و لا سيما السنوات الأولى التي تلت ظهور الثورة الفرنسية و ذلك في عام 1872 ، و ركز عند وضع الخطة على ضرورة بين فكرة التقدم ، كفكرة استراتيجية يجب تنفيذها في الواقع و كيفية صنع القرار في الحياة السياسة الفرنسية ، و ذلك من خلال تصوراته و آراءه ، حول عملية التحديث و التطور الذي يجب أن يتم من خلال التعليم والثقافة ككل[9] .

و حاول أن يناقش النظم الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية ليقسم طبيعة تطور المجتمعات البشرية إلى مراحل تاريخية واجتماعية معينة :

- المرحلة الأولى :

قامت على مجموعة من العلاقات القوية المتشابهة و الموضوعية التي تميز بها على غرار الذين سبقوه هي تأكيد على تطبيق القانون الطبيعي الذي لا يتم إلا عن طريق فهم النسق الاجتماعي والسياسي و دراسة المجتمع باعتباره وحدة كلية شاملة ، و كما سعى لدراسة كيفية تطوير وتنمية القوانين البشرية ، و كيف يتم قبولها بواسطة العقل البشري ، و حاول أن يفسر القوانين من منظور علمي متطور ، خاصة عندما أكد على ضرورة أن يهتم المشرعون للقوانين بدراسة الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية ، قبل إحداث أي نوع من التغيرات التشريعية ، كما أكد على أهمية أن تتم عملية التشريع القانوني في إطار التنمية الاجتماعية الشاملة و التي تهدف إلى إنتاج عقلية بشرية متطورة تقبل التغير و التحديث و التطور .

و الشيء الجديد الذي حرص مونتسكيو هو أن يحلل أفكاره بعيدا عن التصورات المثالية والأخلاقية و الدينية ، و التي تضخم العقل البشري بمجموعة من المبادئ و الأسس التي من الصعب اتباعها أو تطبيقها أو قبولها أساسا . كما اعتقد أهمية إعادة بناء المجتمعات على

أسلوب أو طريقة ثورية (10) ،كما حرص على عملية تطوير و تحديث القوانين من أجل تطوير المجتمعات و لإقامة نظم دستورية و سياسية جديدة .

- المرحلة الثانية :

ظهرت في هذه المرحلة الملكية كعامل أساسي للحياة الاجتماعية و الاقتصادية التي أدت إلى ظهور اللامساواة الاجتماعية و العبودية في نفس الوقت .

- المرحلة الثالثة :

عندما تغير النمو الاقتصادي للحياة الاجتماعية و عرفت المجتمعات الزراعية و ظهر فائض الإنتاج نتيجة لتقسيم العمل والتخصص .

- المرحلة الرابعة و الخامسة :

ظهرت الحضارة الرومانية و الإغريقية و أعطت كثيرا من الاهتمام إلى الفنون و العلوم والفلسفة .

- المرحلة الخامسة و السادسة و السابعة :

فتمثلت في العصور الوسطى و تعكس طبيعة النظام الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي و الإقطاعي .

- المرحلة الثامنة :

تعكس مرحلة الشك العلمي ، كما ظهرت عند ديكارت و تعبر عن مرحلة علمية جديدة

- المرحلة التاسعة :

و هي تعبر عن مرحلة ظهور الثورة الفرنسية .

- المرحلة العاشرة و الأخيرة :

هي مرحلة الحياة العلمية التي غطت جميع مظاهر الحياة في المجتمعات التي عاشها .

ثالثا: العقلانية عند غاستون باشلار

أصدر غاستون باشلار كتابا حول "الفكر العلمي الجديد" سنة 1934 متزامنا مع كتاب كارل ريمون (Karl Raymond Popper) بعنوان "منطق الكشف العلمي"، لقد حرص غاستون باشلار حرصا دائما على النقد والتصويب(11)، وهو منهج لا يعمل باستمرار في تشكيل بنية العقل والمعرفة، أوجد مبحثا خاصا بالقطيعة العلمية بالمعرفة الساذجة وبالعلم الكلاسيكي، وبفكرة المكتمل والمنتهي، وبالرأي، وقد جاء تركيزه على الرأي بصفة بارزة أنّه لا يعبّر إلا عن اعتقاد محتمل، فهو يبرهن فقط على قوة العادة.

وقد تكم العقلانية عند باشلار (G.Bachelard) بأنّ القطيعة أساس ضروري لقيام الموضوعية، بل تأسيس معرفة علمية موضوعية لذلك يربطها بمجموعة من العوائق المعرفية يجب أن نقطع معها كل صلة، لأنّ الرأي لا يؤسس معرفة ولكنه يؤسس التفكير عندما يترجم الميول والرغبات والحاجات إلى معارف، لذلك لابد من تعريته بل وتحطيمه(12).

لذلك يقرر غاستون باشلار (G.Bachelard)قطيعة بين المعرفة الساذجة (معرفة الحسي المشترك والمعطى العياني المباشر) والمعرفة العلمية، وهو ما يعبّر به عن القناعة العميقة التي ترتكز إليها العقلانية المطبقة، والمادية العقلانية.

نشير في هذا السياق أنّ غاستون باشلار (G.Bachelard) ميّز في العقلانية المفتوحة بين مستويين من الحياة المتعاكسين، الحياة الأولى هي الحياة الشعرية المتجذرة في الكوني، والأولي، والحياة الثانية هي الحياة العلمية المتجذرة في الصافي والمجرّد، فتحدد مهامها بتحديد المفاهيم العلمية، فهي تحدد مهمة الرياضيين والفيزيائيين، وهذا في غربلة اللغة والصيغ والنظريات والقوانين العلمية لتصفيتها من شوائب العاطفة والمذهبية والتاريخانية، أي أنّ تاريخ العلم هو أزماته وقطائعه، بل هو تاريخ أخطاء العلم وتاريخ فلاسه، كما هو تاريخ النظريات المغالطة بدل النظريات الخاطئة(13) .

رابعا.العقلانية عند دوركايم :

تعد كتابات دوركايم و دراساته من أهم الدراسات التي تساعدنا على فهم تطور المجتمع الصناعي الحديث ، و التغيرات الفكرية و الثقافية و الاجتماعية و التي طرأت على هذا المجتمع وشكلت بناءاته و تنظيماته و مؤسساته الاجتماعية الحديثة والمعقدة .

بداية نشير أن دوركايم تأثر بمن عاصروه و سبقوه من أمثال أوجيست كونت ، و سان سيمون و غيرهم من أصحاب مدرسة التفكير الاجتماعي و السياسي الفرنسي .

و من خلال كتابات دوركايم المتعددة يمكن أن نقف على نقاط كثيرة من العقلانية سواء ما تعلق منها بدراسة الظواهر الاجتماعية ، علاقة الفرد بالمجتمع ، الانتحار ، دور الدولة ووظائف السلطة ، تقسيم العمل و التضامن الاجتماعي ، النقابات والاتحادات المهنية الاشتراكية و الشيوعية ، الصراع الطبقي ، القانون و أخيرا التربية .

أول نقاط الاتجاه العقلاني عند دوركايم هو إنكاره النزعة السيكولوجية و الفردية التي حاولت أن تضع الفرد و اعتباره وحدة التحليل الأولي ، فهو اتخذ الجماعة أو الحياة الجمعية والمجتمع وحدة اهتماماته الأولى .

فقد اهتم بالظاهرة الاجتماعية ، فحدد ماهيتها ، و تميزها بأنها حادثة معينة ترتبط بالمجتمع ، و لها دلالاتها الاجتماعية المميزة ، كما حاول أن يستبعد الظواهر التي يقوم بتفسيرها علماء النفس أو علماء العلوم الطبيعية بمفردهم دون الاستعانة بتحليلات علم الاجتماع . فلقد أكد على أهمية تفسيرالظواهر الاجتماعية في حدود وجودها و واقعيتها في الحياة الاجتماعية ، وتحليلها أو دراستها على أنها حقائق و تمثل كيانات اجتماعية قائمة في الواقع بالفعل . و هي مستقلة عن الفرد ، فالظاهرة تتميز باستقلالها عن الفرد و تميزها بالقوة القاهرة التي تمارسها الأفراد ، و التي تظهر في صور الجزاءات المصاحبة لأنماط السلوك .

و بمشاهدة العلامة جيدنز (Giddens) (14) بأن كتابات دوركايم لها دور هام في الكشف عن التغيرات الاقتصادية والسياسية و الاجتماعية الهامة التي ظهرت في عصره بعيدا عن التعصب

الأيديولوجي الذي نلاحظ في كتابات كثير من العلماء الذين كانوا معاصرين لدوركايم . و تتميز كتابات دوركايم عن المجتمعات برفضها النزعات الغائية و المثالية ، فيرى أن المجتمعات ما هي إلا أنساق اجتماعية مكونة من تنظيمات او مؤسسات اجتماعية ، و قد اتفقت أفكاره مع العديد من العلماء و المفكرين أمثال كونت (Comte) و سبنسر (Spencer)وميل(Mills)

و ماركس(Marx)و سيمر (Summer)و تونيز(Tonnies) و وسترمارك (Waster Marck) وهوبهاوس (HobbHouse) و غيرهم .

فجميع هؤلاء اعتقدوا بأن المجتمعات تتكون من الأنساق الاجتماعية و ضرورة وجود الشعور العام و المشترك بين الأفراد والجماعات من أجل تكوين المجتمعات .

و من بين نقاط العقلانية الدوركايمية هي تفسيره للمجتمع بعدد من المفاهيم الاجتماعية والحقائق الاجتماعية مثل الوعي او الشعور الجمعي ، الذي عن طريقه يعتبر الأفراد أعضاء في المجتمع ، و بعد ذلك استخدم مفاهيم أكثر تطورا مثل الكائن الاجتماعي ، و الذي يتكون من مجموعة من العلاقات المتداخلة للبناءات و التنظيمات المجتمعية ، و يكشف هذا المفهوم عن مدى تأثره بسبنسر في مفهومه ما فوق العضوي .

اهتم دوركايم في تفسيره شبكة العلاقات التي تتكون منها التنظيمات الاجتماعية و التي تقوم بصفة أساسية على جوهر النظام الأخلاقي و الذي يظهر بوضوح عموما في تحليلاته للدين ، و تقسيم العمل ، و التنظيمات العائلية و المحلية ، و تحليله للجرائم الموجودة في المجتمع بما فيها ظاهرة الإنتحار ، و تفسيراته حول طبيعة عضوية الجماعة التي تقوم عليها الاتحادات المهنية والإدارية و غيرها من التحليلات التي تهدف لتفسير السلوك الفردي داخل تنظيم المجتمع واحترامه لقواعده و نظمه الأخلاقية والدينية (15).

و نستشف العقلانية من خلال معالجته للبناءات التنظيمية و علاقاتها بالبناء الاجتماعي بوضوح في تحليله لمفهوم الأنومي (Anomie) الذي يمثل أحد الإسهامات الهامة في الفكر الدوركايمي و الذي يعبر من خلاله عن مشاكل التنظيم الاجتماعي ، و التي ترتكز أساسا على العلاقة بين الفرد و المجتمع من ناحية ، و علاقته (الفرد) بالتنظيمات المجتمعية التي يتفاعل معها بصورة مباشرة من ناحية أخرى .

و من المفاهيم التي استعملها في هذا الاتجاه هو الوعي ، الشعور الجماعي ، و التي من خلالها يمكن فهم العلاقة المتبادلة بين الفرد و الجماعة أو التنظيم الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه . و الهدف منه عند دوركايم هو الحفاظ على تماسك المجتمع بصورة مستمرة و هذا ما أسماه بالتضامن الاجتماعي .

و عند تعرضه لمفهوم تقسيم العمل ، ظهرت عدة متغيرات و مفاهيم سوسيولوجية منها مفهوم الوظيفة ، الدور ، النشاط ، الهدف ، النتائج ، المؤثرات و غيرها من المفاهيم التي أضفى عليها الطابع السوسيولوجي من أجل التعرف على وسائل إشباع الحاجات و الضروريات الاجتماعية .

ربط دوركايم بين مفهوم تقسيم العمل و التخصص لتحديد الوظائف و الأهداف التي يقومان بها في المجتمع من أجل تحديد العلاقات الاجتماعية سواء بين الأفراد و الدولة أو بين الأفراد أنفسهم .

و حاول الربط في تفسيره لوظيفة تقسيم العمل و فكرته للتضامن الاجتماعي أنواع متعددة و أشكال مميزة تعكس طبيعة الواقع الاجتماعي أنواع متعددة و أشكال مميزة تعكس طبيعة الواقع الاجتماعي المتنوع مثل التضامن العائلي ، و التضامن الوظيفي والمهني ، و التضامن القومي أو الوطني . و من خلال هذا التضامن يعكس بصورة او بأخرى طبيعة تطبيق مبدأ تقسيم العمل والتخصص و تحديد الواجبات و الحقوق داخل كل تنظيم أو جماعة اجتماعية ابتداء من تنظيم العائلة أو الأسرة حتى التنظيمات الكبرى المعقدة في المجتمع (16).

و من أهم القضايا التي عالجها دوركايم في إطار تحليله لظاهرة تقسيم العمل و التخصص خاصة تصوراته حول دراسة التغيرات التي حدثت على المجتمع الصناعي الحديث ، و هي دراسة لكل من فكرة التضامن الآلي و التضامن العضوي .

فالتضامن الآلي يوجد في المجتمعات البدائية البسيطة و يشير إلى وجود التضامن بين أفراد

المجتمع يتم عن طريق العادات و التقاليد و العواطف المشتركة بينهم ، تلك العناصر التي تسمى بروابط التصور الجمعي ، والتي تعمل أيضا على التكامل الاجتماعي الذي يعتبر العامل الرئيسي في وجود و استمرار الحياة الاجتماعية حيث يعمل على زيادة الروابط و العلاقات الاجتماعية و التكامل بين الأفراد و بين المجتمع . و ربط دوركايم بين التضامن و نوعية الجزاءات و طبيعة القواعد الأخلاقية و المعيارية و القانونية بصفة عامة و أثرها على الحفاظ على التماسك الاجتماعي الذي يظهر عن طريق الإحساس المشترك بالوعي الجمعي و الانتماء إلى المجتمع .

أما التضامن العضوي ، فيشير إلى طبيعة المجتمعات الصناعية الحديثة الذي يقدم أساسا على مبدأ تقسيم العمل و الاتجاه لمزيد من التخصص في المهن و الوظائف ، و استقلالية الفرد الذاتية عن الجماعة التي ينتمي إليها .

فكل عضو في المجتمع يسعى لتحقيق أهدافه الخاصة ، و ينعكس ذلك على وجود الاختلافات بين الأفراد في آرائهم واتجاهاتهم و سلوكهم . و يكون النظام القانوني الرسمي هو السمة الضبط الاجتماعي بعيدا عن العرف و العادات و التقاليد. وعموما يظهر هذا المجتمع نتيجة لزيادة التصنيع و التنوع في النشاطات الاجتماعية و السياسية و التنظيمية و الدينية ، و إلى زيادة التخصص و تقسيم العمل و وجود النزعة الفردية ، و يتميز باللاتجانس الاجتماعي(17) .

و الواقع أن اهتمام دوركايم بفكرة التضامن الآلي و العضوي و تمييزه بين نوعين من المجتمعات البسيطة و الصناعية الحديثة لم تكن فكرة وليدة و قاصرة على تصورات دوركايم فقط، و لكن نجد كثيرا من علماء الاجتماع و المفكرين الذين اهتموا بتحليل هذه الفكرة و تمييزه بين نوعين من المجتمعات أو ما يعرف بفكرة الثائية و منهم على سبيل المثال ، كونت سبنسر الذي ميز بين المجتمعات العسكرية و الصناعية ، و أيضا فرديناند تونيز ، و سميل و فيبر و غيرهم . وعلى أية حال أن دوركايم كان هدفه واضحا في اهتمامه بفكرة التضامن الاجتماعي ليعبر عن النزعة الليبرالية المحافظة من أجل تماسك المجتمع و مواجهة المشاكل والأزمات التي ظهرت نتيجة للنمو الصناعي أو زيادة المجتمع و تعقده .

خامسا: ماكس فيبر والعقلانية:

يرى "ماكس فيبر" (Max Weber 1864-1920) أنّ البروتستانتية لم تكن إلاّ دعوة عقلانية للتحرر من الوسائط الدينية التي غيّبت في كاملها نقاوة روح الدين، حيث بيّن في تحليله للكاثوليكية الرومانية، بل والديانات الشرقية بشكل عام مثل الهندوسية والبوذية أنّها ديانات العالم الآخر، في حين عدّ البروتستانتية ديانة هذا العالم، لأنّها أعلت من شأن الجهد البشري فصارت تساهم مباشرة في تطوير الرأسمالية الصناعية.

وعلى الرغم من الاعتراضات الكثيرة التي واجهت فكرة "ماكس فيبر" (Max Weber) والتي تؤكد أنّ العامل الحاسم في بدايات تشكل الرأسمالية وظهور الصناعة تعود إلى الحركية الاجتماعية التي صنعها المناخ العقلاني، والثقافة العلمية والمنهج التجريبي إلاّ أنّ حركة التاريخ تبدو في كفة "ماكس فيبر" (Max Weber) لأنّ ميلاد المجتمع الصناعي كان متجسدا في شمال أوروبا الغربية وخاصة في إنجلترا وهولندا وشمال فرنسا وشمال ألمانيا، فهذا الواقع لا يقبل التفسير إلاّ بأداة تحليل الفيبيرية، لأنّ التقدم في هذا الجزء من أوروبا لم يكن منتظرا بالمقارنة مع البلدان الأوروبية المتوسطية، إذ كان واقع هذه الأخيرة متخلفا على المستوى المالي والتقني، وكان في القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث لا يزال في مرحلة استيعاب التجديدات الحاصلة في

ميداني التجارة والفنون في الإمارات الإيطالية مثلا، كما كان في حروب تستهدف ثروات الإمبراطورية الإسبانية المتقدمة عمرانيا وثقافيا، فلم يكن هذا الجزء من أوروبا مؤهلا للريادة الاقتصادية على الصعيد الأوروبي فضلا عن العالم.

ترتكز العقلانية عند "ماكس فيبر" (Max Weber) في توزيع الوظائف داخل التنظيم الإداري بوصفه نظاما حياديا غير منحاز ولا مشخص كما يرى أنّ الإداري المحنك يشكل العمود الفقري في بنية الدولة الحديثة وهذا نتيجة قاعدة الحياة الاقتصادية للغرب حيث حلل الوظيفة الإيجابية للنظام البيروقراطي في الدولة الحديثة، كما حلل العوامل السلبية فيها، عندما يتحول إلى عوامل اللاعقلانية في يد أية سلطة تكرس التخلف وتؤدي إلى طغيان منطق الزعامة، وتفاقم الشخصانية والأصولية.

ونستشف العقلانية الفيبيرية عند حديثه عن البيروقراطية كإحدى الظواهر التنظيمية في المجتمعات الصناعية، ويعنى مفهوم البيروقراطية عند " فيبر" (Weber)ذلك التنظيم الضخم في المجتمع السياسي المعقد، والمتحضر الذي يوجد لتحقيق أهداف الدولة، وإخراج السياسة العامة إلى حيز الواقع، ووضعها موضع تنفيذ، والبيروقراطيون هم أولئك الأفراد العاملين في الإدارات الحكومية، الذين يتم اختيارهم للعمل بأساليب ليست ورائية ويكوّنون فيما بينهم تنظيما هرميا تحكمه قواعد معينة، وتحدد فيه الاختصاصات والواجبات والمسؤوليات، وقد اعتبر " فيبر" (Weber)المنظمة البيروقراطية من أفضل أشكال التنظيم الإداري وأكثرها قدرة على تحقيق الأهداف الأساسية للمنظمة، هذا إضافة إلى تمتعها بصفة العقلانية (أو الرشد) في معالجة المشكلات الإدارية، واعتمادها العمل المكتبي، وأساليب التخصص الإداري، وقد افترض " فيبر" (Weber)في المنظمة صفات هي: الدقة والسرعة والوضوح والإلمام الكامل بالمتطلبات، وانصياع المرؤوسين بشكل تام إلى المسؤول الإداري الأعلى، وتقليل الاحتكاك بالمستويات الإدارية المختلفة، وهذا كله من أجل التوصل إلى نموذج عقلاني للمنظمة ينطلق أساسا من القيم الفكرية والنظريات التي سادت الوسط الإداري الذي تعمل فيه المنظمات بشكل عام.

وحتى نصل إلى النموذج العقلاني (الغير شخصاني) حسب " فيبر" (Weber) لابد أن يعتمد النموذج البيرواقراطي على الخصائص التالية:

أ-تحديد الاختصاصات الوظيفية في المنظمة البيروقراطية بصورة رسمية في إطار القواعد واللوائح المعتمدة، واعتماد الصيغ القانونية في إيضاح جوانب التخصص وتقسيم العمل.

ب-توزيع الأعمال والأنشطة الإدارية على أفراد (أعضاء) المنظمة بصورة رسمية، وبأسلوب ثابت ومستقر ومحدد لكل وظيفة.

ج-تحويل السلطات (الصلاحيات) لأفراد المنظمة لضمان سير أنشطتها وأعمالها وفق قواعد واضحة ومحددة يتم من خلالها تحديد نطاق الإشراف لكل مسؤول إداري.

د-الفصل بين الأعمال الرسمية للموظف وبين الأعمال الشخصية الخاصة به، التي يقوم بها في إطار علاقاته غير الرسمية، ثم الحد من أثر العلاقات الشخصية بين أعضاء المنظمة، وسيادة العلاقات الرسمية بعيدا عن العاطفة والتمييز، وعدم الموضوعية وإعطائها الدور الأساسي في البناء الهيكلي للمنظمة البيروقراطية.

هـ تعيين الأفراد العاملين في المنظمة وفق المقدرة والكفاءة والخبرة الفنية في النشاطات التي يؤدونها بما يتلاءم وطبيعة الأعمال المحددة في قواعد وأنظمة العمل في المنظمة البيروقراطية.

و-إسناد تركيب المنظمة على أساس التدرج الهرمي واعتماد التقسيم الإداري على مستويات تنظيمية بشكل دقيق وحاسم، حيث تشرف المستويات الإدارية الأعلى على المستويات الأدنى منها في التنظيم، على وفق التسلسل الهرمي للمنظمة وبصورة ثابتة ومحددة.

ز-تعتمد الإدارة في تعملها على الأسلوب الرسمي مع الأفراد العاملين فيها علىالوثائق والسجلات والمستندات ويجري حفظ هذه الوثائق بصورة يسهل معها سير أعمال المنظمة.

ط-تتصف القواعد والتعليمات التي تطبقها المنظمة بالشمول والعمومية والثبات النسبي بحيث يستطيع كل فرد استيعاب وفهم القواعد الإدارية السائدة بدقة ووضوح.

ي-تعمل المنظمة على تحقيق الأمن الوظيفي لأفرادها من خلال التقاعد وزيادة الرواتب والعمل على إيجاد إجراءات ثابتة للترقية والتقدم المهني ويتم ذلك من خلال زيادة حماس الأفراد وإخلاصهم ورفع كفاءتهم الفنية، وخلق سبل الرقابة على الأداء واستخدام الأساليب العقلانية في زيادة الإنتاج[18].

سادسا:هابرماس والعقلانية (HABERMAS):

لقد اكتملت النظرية النقدية لمدرسة "فرانكفوت" مع "يورغن هابرماس" (Jurgen Habermas) خصوصا عبر تأسيس لعمل نقدي للمؤسسات الاجتماعية الفرعية في تنوعها، تلك المؤسسات التي يعود إليها تكوين الوعي الفرعي والجماعي في المجتمعات الغربية المعاصرة.

تمحورت اهتمامات هابرماس في الكشف عن طرق تحديد الوعي واستعادة الحيوية لملكة النقد الفلسفس التي غمرتها التقنية بأنظمتها القمعية والمنظمة تنظيما محكما، لايمكن اختراقه دون عملية نقد كمؤسس العقل التواصلي.

لا يخفى علينا أنّ دراسات الواقعيين الجدد من أمثال " هابرماس" (Habermas) مشبعة بقيم التوتر الفعال في العالم، وبقيم الهيمنة وهذا نتيجة الوضع الراهن الذي يستمد شرعيته من ترويج فكرة أنّ النظام القائم هو النظام الطبيعي، وهذا ما دفع أصحاب الاتجاه الواقعي إلى القول أنّ كل العالم محكوم عليهم بالتواصل فيما بينهم وفق قواعد إجرائية يرى " هابرماس" أنّ تيار ما بعد الحداثة ركّز في تشخيصه للحداثة على الجوانب السلبية فقط، وذلك عندما حكم على الحداثة بالفشل، كونها أدّت إلى فقدان الحرية، والمعنى في الحياة الاجتماعية، وإلى زيادة القهر والقمع والسيطرة ، في حين يمكن للحداثة أن تكون قادرة على الاستمرار لأنّه لا يزال بها مضمون يمكن الدفاع عنه، وهذا المضمون هو إنجازات العقلانية التواصلية[19] التي تأسست عليها نظريته كمحاولة لاكتشاف التواصلية (Rationalité commutative) كبديل عن تشخيص مدرسة فرنكفورت التي كانت تقوم على العقلانية الأداتية فقط.

لقد نبّه " هابرماس" (Habermas) إلى أنّ المادة الثقافية التي يتعاطاها المواطن في الدولة الحديثة أضحت بالآلة الاقتصادية وبآلية إنتاجها لتحقيق أكثر ما يمكن من الربح، ولعلّ الشكل الأكثر وضوحا في مسيرة تطور الآلة الإيحائية والإعلامية ما أضحت عليه المؤسسة.

ومن هذا المنظور بالذات أراد " هابرماس" أن يؤسس نظرية في التطور إلى توسيع نطاق الفعل التواصلي (العقلاني) في مجال الأخلاق والحياة الاجتماعية، لأنّ وعي الأفراد بذواتهم يعتمد على توسع نطاق هذا الفعل الذي يقوم على أساس التفاعل الاجتماعي، والتفاهم المتبادل بين الذوات، ومنه تتأسس العقلنة التواصلية على مبدأ زيادة العقلنة الاجتماعية في مجالات الأخلاق والقانون وبروز مزيد من التنظيمات الديموقراطية والقوانين الوضعية وهو يحاول أن يوضح السبل التي تمت بها عقلنة الحياة في الغرب، والكشف عن الاتجاهات التي تسير وفقها العقلانية الغربية.

لقد تمكن" هابرماس" من تحديد المشكلة الأساسية في الحداثة الغربية لما حصرها في الاختلال بين العقلية الأداتية التي نمت بتسارع هندسي في الغرب، والعقلانية التواصلية التي ظلت تتنامى بسرعة حسابية، وهذا بالذات ما ناعكس سلبا على كل جوانب الحياة المعاشة، وهي نابجة جميعها عن التناقض بين عمليات العقلنة الأداتية والعقلنة التواصلية، وعن زيادة تطور عالم الأنساق الاقتصادية والسياسية على حساب عالم الحياة المعاشة[20].

الدعائية من استقلال عن بقية المؤسسات، لذلك نشأت في مجتمعات ما بعد الحداثة في الغرب مؤسسات أخرى لصيانة مؤسسة الدعاية، وتطوير أساليبها وتوسيع مجال فعاليتها، وتأثيراتها، ومن ثم صارت الدعاية تحتل المكانة الأولى في كل مشاريع الإنتاج والخدمات.

وازدادت أزمة الحداثة لما اخترقته المؤسسات العامة التي كبّلت السلطة بآليات الدعاية، وتكييف الوعي، وتوجيهه، وذلك بتثبيت الوضع القائم، ومن ثمّ يبقى المخرج من كل هذا الاحتواء حسب " هابرماس" (Habermas) في تنشيط الاتصالية الاجتماعية كمبدأ عقلاني الذي أطرت كل الحركية النقدية للعقل الغربي فكانت طريقا لتطور الوعي الغربي، ومؤذنا بميلاد المجتمع المستنير ينشط في هذا المجتمع اتصالية جديدة يعي فيها العقل روحه النقدي، ويسترد فيها الوعي استقلاليته عن مجموع الإطار المؤسسي الذي صنعته تقنيات الرقابة، وشكلت وحددت مضامينه سلطة الدعاية ووسائل الإعلام.

جاءت آراء " هابرماس" مراجعة شاملة لمواقف فلاسفة مدرسة "فرانكفورت" التي تتماثل مع تيار ما بعد الحداثة في النقد الكلي للعقل والعقلانية الغربية، وفقدان الثقة في القيم التي انبنت عليها فلسفة التنوير الأوروبي.

وعلى الرغم من هذا فإنّه يرى أنّ الحداثة الغربية مازالت قادرة على الاستمرار ولا يزال بها مضمون يمكن الدفاع عنه، ويتمثل في إنجازات العقلانية التواصلية التي ترتكز على الديموقراطية، والحقوق الطبيعية والنظام الجمهوري والوعي الأخلاقي الحديث المؤسس على معايير تواصلية.

المراجع :

1-René Descartes : Les principes de la philosophie, Librairie philosophique J.Vrin, 1967, p49.

2 .جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة الأب مارون خوري، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط3، 1982، ص 48.

3.محمد أحمد خلف الله، العروبة في الدولة العلمانية، في المستقبل العربي، العدد 5، جانفي 1979، ص54.

4.آلان توران، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997، ص52

5.أنظر : مصطفى المنشاب ، علم الاجتماع و مدارسه ، ص . 200.

6.أنظر أيضا : إحسان محمد الحسن ، علم الاجتماع – دراسة نظامية ، بغداد ، مطبعة الجامعة ، 1976 ، ص . 97 .

7.أنظر أيضا : Mackenzie ,(I.S) outlines of Soual philosophy , London , 1961 P . 46 George Allen and Uniwin..

8.عدنان أحمد مسلم ، علم الاجتماع ، نفس المرجع ، ص . 32 .

9.أحمد المنتاب ، ،مرجع ذكره سابقا ، ص. 427 .

10.نفس المرجع ، ص . 137 .

11.عبد الله عبد الرحمن ، تطور الفكر البشري ، مرجع ذكره سابقا ، ص . 136

12.غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1982، بيروت، لبنان، ص95.

13.Bachelard (G) : La psychanase du feu, ed P.U.F, France, 1985, p26

14.Sylvain Auroux et Yvonne Weil : Dictionnaire des auteurs et des thèmes de la philosophie hachette, France, 1975, matière : Bachelard, pp 18-20

15.Giddens A , Capitalism and Modern Social Theory , Combridge . Univ , Press , London vill 1981 ,p.19.

16. عبد الله عبد الرحمن ، تطور الفكر الاجتماعي ، سبق ذكره ، ص . 326 .

17. نفس المرجع ، ص . 336

18.ليل محمد حسن الشماع، نظرية المنظمة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2000، ص ص 35-36.

19.Habermas Jurgen : The philosophical discourse of modernity, Traslated Frederick Lawrens M.I.T press, combridge, London, 1998, p384

20. Habermas Jurgen : Modernity and incomplete project, in peter prooker, Modernity /post Modernity, Ed Longman ? NEWYORK ,U S A, 1992, p130